ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال [1] يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه - وأنتم [2] منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ [3] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

---

(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقطعُوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيمٌ (٣٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أو لم يروا أنَّا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطف النَّاسُ من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٦٧) ﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمراتُ كُل شيءٍ رزقاً من لدُنَّا ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون (٥٧) ﴾ [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : أي : تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أي: ما تكون يا محمد في شأن . والشأن: هو الحال العظيم المتميز الذي يطرأ على الأمر.

ونحن في حياتنا اليومية نقول: ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشيء الهام الذي حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور.

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

أي: لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها: اعملي أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم في شأن.

ولذلك حين سئل أحد العلماء[1] : ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال: «أمور يبديها ولا يبتديها ».

أي: أنه سبحانه قد رسم كل شيء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أي: مُبَالغ في القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا.

فالحديث في الآية التي نحن بصددها موجَّه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذي يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و«لا تفعل».

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ .. (٦١) ﴾ [يونس]

---

(١) هو: الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال: إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها. ذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٦٥٦٧).

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له [1] ، وتعنى تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ [2] أُغْرِقُوا ..(٢٥)﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ [3] الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. (٧)﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصَاب [4] الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

---

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شأناً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٢٨٣/٤).

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآني، وإما تطبيق فعليّ للنص القرآني بالحديث النبوي، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سُنَّته.

والحُجَّة على الحُكم - أي حُكم - يأتي بها القرآن، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرِّع.

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشيء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله»[1]، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعْلاً، أو قولاً، أو إقراراً.

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه:

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

وفي هذا انتقال للسامعين للقرآن، المبلَّغ إليهم هذا المنهج، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه.

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنيَّة القلب - يسمَّى عملاً؛ لأن عمل القلوب هو النية. ولكن إذا صدر الحدَث من اللسان كان قولاً، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً.

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول، وفعل.

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكيء على أريكته يُحدَّث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما كان فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله». أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٤/ ٢٨٦) في سننهم، واللفظ للدارقطني.

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول ﷺ.

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق، وتلك اللهفة، وحسن الاستقبال، وإخلاص الأداء، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ ليتزل. أى: أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب.

وقد قال الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم(١) مِّنْ عَرَفَاتٍ..(١٩٨)﴾ [البقرة]

أى: شَرَعْتُم(٢) فى الذهاب مسرعين؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة، وتقبلون بها على نُسُك ثان.

إذن: فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب.

يقول الحق سبحانه:

---

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً؛ ولذلك سميت إفاضة. انظر فقه السنة (١/٥١٨) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) شرعت فى الأمر: بدأته ودخلت فيه.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى.

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشىء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهر التى تُكبِّر الشىء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات.

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُوّاً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذى تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله فى عينيك.

إذن : لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شيء.

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى : النملة الصغيرة.

وأنت إذا وطأتَ نملة فى أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى :

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير [١].

إذن: الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية.

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة.

ويعزب، أي: يغيب، ويقال: «هذا البئر ماؤه عازب»، أي: قادم من عمق بعيد، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة.

ونسمِّي الرجل الذي يبعد عن أهله «عَزَب».

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾. أي: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شيء ولا أكبر شيء.

يقول سبحانه ذلك؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله، ويَعْلَمُها، وهو المُجَازِي عليها.

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّي على قضاء الأرض، فلن يستطيع أن يُعمِّي على قضاء السماء [٢].

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه:

---

(١) قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] وسار سليمان بموكبه العظيم هذا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. (١٨)﴾ [النمل] أي: مَرُّوا على وادي النمل فقالت نملة لإخوانها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] فهي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل]. أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والديَّ بالإسلام لك. [ابن كثير: ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩].

(٢) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فقال:

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ..㊶﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن.

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد. أى: الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرَّة.

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة.

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَّسَ المتصلون بالدين وخافوا أن يقال: إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ㊶﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذَرَّة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى مِنْ رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد[1]، فـ«مِنْ» فى قوله:

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مثقال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿وَرَبِّي﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانهُ يرى ويعلم الغيب والشهادة.

---

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. والحق أن حروف الجر «الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معى مال» و«ما معى من مال». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أىِّ مال مع المتكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معى مال».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. ⑦ ﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ .. ⑥① ﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال».

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ .. ③ ﴾ [سبأ]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب[1] ، فيأتي بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البياني .

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

---

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيبة : اسم مرة من غابه ، أي : ذكره في غيبته بالسوء كاغتابه ، قال الحق : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً .. ⑫ ﴾ [الحجرات] والغيبة : اسم هيئة منه . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ② ﴾ [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ⑩⑨ ﴾ [المائدة] .

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين فى الأرض : قوموا ها هى الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ[1] (٦١) ﴾ [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شىء

---

(١) بان الشىء يبين بياناً ظهر واتضح ، فهو بيّن وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .
يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من : القاموس القويم] .

مكتوب فى الكتاب المبين ، ونحن فى الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التى تُسجِّل ما له وما عليه. ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شىء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه ولىٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً.

ومثال ذلك : الرجل الذى سُرق منه شىء ، هو لا يعرف أين يوجد الشىء الذى سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً.

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [1] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار.

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سراً من تلك الأسرار[1].

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ..(٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات.

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

---

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمةً للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول.

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ [1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧) ﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتي على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت في القرآن.

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧) ﴾ [الجن]

وهي ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة [2] ،وقال فيه الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدي به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانهَ الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هي مِنْ عطاءات الله تعالىَ.

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣) ﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠) ﴾ [الكهف] أي : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣) ﴾ [التوبة] أي : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم).

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ى)] . أي: الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان في الخير أو في الشر ، وشاع استخدامها في الخير.

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ[1] .. (٥٩)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد، والولىّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولىّ» من ولِيَهُ، يليه، أى: قريبٌ منه، وهو أول مَفْزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاجَ فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم، ومَنْ يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة، ومَنْ يقرب غنياً، إن احتاج، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً.

إذن: فالولىّ هو القريب الناصر المُعِين المُوالى.

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه، وقد قال القرآن:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ[2] .. (٩)﴾ [الشورى]

---

(١) قال الزجاج: جاء فى التفسير أنه عنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]. قال: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه قد خالفه. [لسان العرب: مادة (ف ت ح)].

(٢) تقول اللغة: الولى: هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة، أو الولى الصديق، وهو ضد العدو، والولى: المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان، ويقوم على شئونه، كالوكيل، ويجمع على أولياء. وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، يقول الحق: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [يونس] والولى: من تولاه الله بالرعاية، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم).

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الوليّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْقٍ لا يبعده عن خَلْقٍ ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الوليّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خُطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته[1] .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ[2] وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر .

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه (بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّي عليك كن لي مُحباً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وفي هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله في يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربْتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[1] .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً . [المعجم الوسيط : ذرع] . والباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً ، والمراد : المبالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : ب و ع] . والهرولة : الإسراع .

إذن : فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن : فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً .

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بهِ ... من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى : أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحبُ الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

(١) هو أحـ[illegible] شاعر فيلسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن [illegible] فى الرابعة من عمره [illegible] هـ وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)] .

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً فى معيّته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك .

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شىء فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شىء فيحطمنا .

إذن : فَحَجْب المرائى يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن .

وهَبْ أنك فى مكان مظلم ويوجد شىء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىِّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فىّ الظلام .

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَـمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنانِ [1] لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلِّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب .

وقوله سبحانه : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ..(٦٢) ﴾ . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ أى : أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح . وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والالتئام : هو اندمال هذه الجروح . [انظر لسان العرب] .

يحدث فى المستقبل.

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه، وقد ترى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه.

إذن: فالخوف يأتى من المستقبل، وهو أمر مرتقب، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شىء فات.

والحق سبحانه يقول:

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا [1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..(٢٣) ﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث؛ لأن ما فات لا يعود.

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول: «إن فلاناً هذا مسكين»؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له.

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله.

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه: «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورَع الذى يتجلَّى فى قوله ﷺ:

«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» [2].

---

(١) الأسى: الحزن الشديد. وتمام الآية: ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً، فلا يحزن على شىء فاته، ولا يفرح بشىء جاءه قد يذهب بعد حين.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة.

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور»[1].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ[2] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع[3] ، والخضوع[4] ، والسكينة ، ورقَّة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَع (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَت) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير].

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً : ذلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر : أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]